## المحاضرة الأولى: الإحياء الشعري في المشرق

نضب الشعر العربي بعد العصر العباسي، وذلك بطغيان الصنعة وغلبة التكلف، وشيوع التقليد، واختفاء روح الإبداع والتجديد. فكان الشعر في عصر الجمود كما صوره العقاد:" كلاماً منظوماً لا يستهدف غير الوزن، ولا يستكثر إلا محسنات الصنعة، حتى تحول الشعر إلى ما يشبه الشواهد والمنظومات التي كانت تشيد بها كتب البيان والبديع، فظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها كما يتبارى الأطفال في جمع الملون وتنفيذه".

وعلى إثر ذلك ظهرت حركة شعرية ناهضة فنية حاولت تحطيم أسوار الجمود وجدار التقليد وتدك حصونه، حركة البعث والإحياء الجديدة التي تزعمها وحمل لواءها محمود سامي البارودي بربط الماضي بالحاضر، وأن تبعث إلى الحياة أروع النماذج من تراثنا الأدبي، والتي استمالت الأذواق والعقول، فبدأت العيون تتفتح على ثروة فكرية وأدبية هائلة رائعة وراقية، خلفها لنا أسلافنا الأولون، فنشطت عملية إحياء لأمهات الكتب العربية القديمة ونشرها وإذاعتها بين الناس.

أنقذ الارتداد إلى الماضي والامتداد به إلى الحاضر أو محاولة وصل الماضي بالحاضر الأسلوب الشعري من انحطاطه وضعفه، فأصبح لدينا مستوى من التعبير الأدبي والشعري يضاهي التجارب الشعرية للشعراء العباسيين، تجد فيه صور الأقدمين وطرائق صياغتهم، كما وعتها آذان شعراء حركة البعث من أمثال البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

غير أن محاولة اقتفاء أثر الشعراء القدامى ظلت نمطية ومقيدة بالإتباع في أمانة، مكبلة في معظمها بالولاء العقائدي لنماذج الشعراء القديمة، دونما إبداع محض أو تجديد صرف من شأنه أن يحرر الشاعر من التقليد والإتباع والمحاكاة.

**مدرسة البعث والإحياء:**

مدرسة البعث والإحياء هو اسم أطلق على حركة شعرية ظهرت في مصر في بدايات العصر الحديث، وقد قامت هذه الحركة الشعرية على مبدأ واحد هو التزام شعراء مدرسة البعث بالأغراض الشعرية وبأسلوب الصياغة الشعرية عند شعراء عصور القوة والازدهار (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، العصر الأموي، العصر العباسي) ومن أشهر شعراء مدرسة البعث والإحياء محمود سامي البارودي، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم.

### محمود سامي البارودي: (1838-1904):

يمتاز هذا الشاعر المصري الكبير بأنه كان أسبق شعراء الإحياء والنهضة إلى إخراج القريض العربي بما مني به من ضعف الديباجة في عصر الضعف والانحطاط. أعاد إلى النظم

العربي مسحة من تلك الصياغة الفخمة المتينة التي عرفناها لفحول الشعراء كأبي تمام والمتنبي، غير أنه أكثر النسج على منوالهم والانسحاب على أذيالهم ولكن مع ذلك لم تمح شخصيته بالمحاكاة والتقليد، بل بقي قدر موفور من شعره يتمتع بنفحة شعرية خاصة قوية.

تعاطى أكثر الأبواب المطروقة في الشعر العربي، إلا أن شخصيته العسكرية واشتراكه في الحروب بجانب الدولة العثمانية، ثم بجانب العرابيين، هيأ له أن يبرع في وصف مواقف القتال متأثرا بالمتنبي، وكذلك نفيه بعد الثورة العرابية إلى جزيرة سرنديب، يسر له أن يجيد في الحنين إلى الوطن وتشوق الخلان.

فالبارودي جدد في الشعر العربي الحديث، فاهتم بالوزن والقافية، والمعنى واللفظ الفصيح، وارتقى باللغة الشعرية من الصيغ الركيكة إلى المتانة والقوة والجزالة في الأسلوب، ويرجع الفضل في ذلك إلى أنه " نظم الشعر عن طبع وسليقة على الرغم من أنه لم يقرأ كتابا نظريا في فنون اللغة العربية كما يشير إلى ذلك حسين المرصفي صاحب كتاب (الوسيلة الأدبية). كما نوع البارودي في الأغراض الشعرية "فجعل للوطنيات بابا في الشعر العربي قرعه اللاحقون، وجعل من غربة النفي بابا آخر، وأسهم في تهذيب الأسلوب الشعري، والعناية بالأوزان، والقوافي، وأعاد إلى القصيدة رونقها الذي فقدته منذ قرون".

رد البارودي إلى الشعر العربي عنصر الذاتية الذي فقده فترة من الزمن، وقد أشاد العديد من النقاد بدوره البارز ومكانته الشعرية. الناقد عباس محمود العقاد يقول أن " هذه آية الشاعرية الأولى، خاصة بعد أن اكتظت حياة البارودي بالتجارب والأحداث التي صقلت نفسه وزودته بذخيرة ذاتية شاعت في شعره من ذلك مشاركته في حرب جزيرة كريت، وفي حرب البلقان، ثم تجربة النفي إلى جزيرة سرنديب وما حل باسرته من مآسيـ فكل هذا كان له الأثر الملموس في طغيان النبرة الذاتية الحزينة على شعره".

وعند التمعن فيما كتبه نجد ملامح التأثر بالشعراء القدامى وبخاصة الشعراء العباسيين والجاهليين، التي تتجلى في شكل القصيدة ومضامينها على الرغم من الحدود الزمنية الفاصلة بين عصر البارودي والعصور السالفة، فقد حافظ على نهج الشعراء القدامى، وحطم القيود والأغلال ففخر ووصف وشكا وحن إلى الوطن، وتغزل ومدح وهجا ورثى وقال في السياسة.

يقف البارودي على الطلل ويتذكر الأحبة كعادة الجاهليين، فيقول:

**ألا حي من أسماء رسم المنازل وإن هي لم ترجع بيانا لسائل**

**خلاءٌ تعفتها الروامس والتقت عليها أهاضيب الغيوم الحوافل**

**أسباب التسمية "البعث والإحياء":**

سميت هذه المدرسة بالبعث والإحياء لأن روادها أعادوا للشعر قوته، وأنقذوه من حالة الخمود ولأنها بعثت الحياة في الشعر من جديد.

سميت كذلك بالاتجاه المحافظ، لأنه حافظ على عمود الشعر وعلى الأوزان والقوافي وعلى قوة المعنى والمبنى، وعلى سلامة اللغة وعلى الصور العربية القديمة وأكثروا من البيان البلاغي.

سميت كذلك بالكلاسيكية، لأنها تحافظ على السالف وتحافظ على العقلانية والالتزام بالعروض والقافية والنهج منهج أسلافهم.

كما سميت بالمدرسة التقليدية لأنهم احتذوا حذوا القدماء في بناء الشعر، والصور والأخيلة والالتزام بعمود الشعر ولم يأتوا بجديد.

**1- العوامل التي هيأت البارودي لريادة مدرسة البعث والإحياء:**

توفرت في البارودي مجموعة من الخصائص أهلته لأن يكون رائد البعث والإحياء الشعري في المشرق العربي، أبرزها ما يلي:

- موهبته الشعرية واستعداده الفطري.
- إيمانه بعظمة أمته العربية وجمال لغتها الخالدة.
- اطلاعه على التراث العربي في عصور ازدهاره وحفظه لروائع الشعر العربي القديم.
- إتقانه اللغة التركية والانجليزية والفارسية، واطلاعه على آدابهم وحفظه الكثير من أشعارهم.
- كثرة أسفاره وتجاربه العميقة التي مر بها والتي صقلت عواطفه.
- إدراكه بأن الشعر الجيد يكمن فيما قبل عصور الضعف.
- استطاع البارودي أن ينظم شعرا قويا رصينا في عباراته وألفاظه، متينا في أساليبه، شريفا في معانيه، شعرا يحاكي به طبقة من شعراء العرب، وتبعه في هذا المسار الشاعر اللبناني (إبراهيم اليازجي) الذي امتاز شعره بالجزالة ومتانة النسيج وسمو العبارة، وكان مشدودا إلى الموضوعات التقليدية القديمة في حين نجده قليل الالتفات إلى نفسه، كما نجد الشاعر العراقي (معروف الرصافي) المهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية، ونجد أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم ممن تبعوا هذا المنهج.

**2- خصائص مدرسة الإحياء والبعث:**

- تقليد الشعراء القدامى في الصور والمعاني والأخيلة.
- قيام القصيدة على وحدة البيت.
- تعدد الأغراض الشعرية والموضوعات في القصيدة (المدح، الفخر، الهجاء، الرثاء، الغزل...)
- التزامهم بالأوزان الشعرية.
- عنايتهم بالأسلوب وبلاغته وروعة التركيب.
- استخدامهم لألفاظ من الشعر العربي القديم، مثل: عيون المها.

**3- دور البارودي في النهوض بالشعر:**

- التزم في شعره برصانة العبارة وقوة الألفاظ ومتانة الأسلوب وصفاء الخيال وجزالة التركيب وشرف المعنى.

- انتقل بالأسلوب من الغموض والتعقيد إلى الوضوح والسهولة، وذلك بتحريره من قيود الصنعة اللفظية.
- ارتقى بالكلمة والعبارة من الضعف والابتذال إلى صحة التركيب وقوته، وارتفع بهما من تكلف البديع وأثقاله إلى الرصانة والتحرر، ومن التعقيد والغموض إلى الإفصاح والوضوح.
- انتقل بالعاطفة من البرود والجفاف إلى الحيوية والذاتية.
- انتقل بالموضوعات من السطحية والتكرار إلى معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية.
- حافظ على وحدة الوزن والقافية، وهو ما جعل موسيقى شعره قوية رنانة.
- انتقل بالخيال من الضيق والسطحية إلى التحليق في عوالم الشعر، فجعل صوره الخيالية كأنها لوحات متحركة مرئية ومسموعة.

**4- محاكاة البارودي للشعراء السابقين:**

قام البارودي بمعارضة الشعراء القدامى في بعض قصائدهم، فسار على وزنها وقافيتها، ولم يكتف بالتقليد والنقل، بل نافسهم في بعض معانيهم، وقد أعلن في مقدمة ديوانه أنه يحاكي الشعراء الماضين ويعارضهم فيما ينظم، ووصف الرافضين لهذه الطريقة بالجهل والغفلة، فقال:

**تكلمت كالماضين قبلي بما جـــــرت به عادة الانسان أن يتــكلما**

**فلا يعتمدني بالإساءة غافـــــــــــــل فلا بد لابن الأيك أن يترنـــما**

انصرف البارودي إلى الشعر العربي القديم، وعكف على دراسته وخرج بأفضل نماذج جمعها في كتابه (مختارات البارودي) يحذوه حب عميق لهذا الأدب، وأمل سعيد في محاكاته، فانكب على ينابيع الأدب القديم الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، ولم يتركها إلا بعد أن تمثلها، فصارت جزءا لا يتجزأ من روحه وفنه.

يقول البارودي:

**فلا تثِق بوداٍد قبل معرِفةٍ فالكُحل أشبهُ في العينين بالكَحَلِ**

وهو تقليد لقول المتنبي:

**لأنَّ حِلمَكَ حِلْمٌ لا تَكَلَّفهُ ليس التَّكَحُلُ في العينين كالكَحَل**

كما يقول البارودي مقلدا أبو نواس في رائيته المشهورة (أجارة بيتنا):

**أبى الشوق إلاَّ أن يحِّن ضميرُ وكُلُّ مَشوقٍ بالحنينِ جدير**

يقول أبو نواس:

**أجارةَ بيتِينا أبوكِ غَيورُ ومَيسورُ ما يُرْجَى لَدَيكِ عَسِيرُ**

كما يقول البارودي:

**طَربتُ وعَادتنِي المُخيلة والسكر وأصبحتُ لا يلوى شيمتي الزجر**

وهي تقليد لقول أبو فراس الحمداني:

**أراك عصِّي الدمع شيمتُكَ الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ**

**5- نماذج من أشعار البارودي:**

لم يخرج البارودي في معظم ما نظم عن الأغراض الشعرية المعروفة في الأدب القديم كالمدح والفخر (مع المبالغة فيه) والوصف، والرثاء والغزل (الوقوف على الأطلال) والهجاء والزهد والحكمة.

إن شعر البارودي يصح اتخاذه فاتحة للأسلوب العصري الراقي، بعد إسفاف الشعر وانحداره إلى الرداءة.

ومن أمثلة ما طرق من أغراض شعرية قوله في الفخر:

**أنا مصدر الكلم النوادي بين الحواضر والغوادي**
**أنا فارس، أنا شاعـــــــر فـــي كل ملحمة ونادي**

إذ جمع في بيتين من الشعر افتخارا بنفسه لفصاحته وامتلاكه لناصية اللغة، وبفروسيته وشجاعته وهو المشهود له في كل مكان يقصده أو مناسبة يحضرها بفروسيته.

وقال مفتخرا بقومه الشراكسة:

**نماني إلى العلياء فـــــرع تأثـــــــــلت أرومته في المجد وافـــــــــتر سعد**
**وحسب الفتى مـــجدا إذا طالب العـــــلا بم كان أوصاه أبـــــــــــوه وجده**
**نحنُ الشراكِـــــسةُ لا نرضَى بائِـــــــقة أنف العدو السيف نجدعـــــــــــه**
**حبُّ الشراكِسة فرضٌ والهـــــــــــوى قدرٌ ما قدر الله حق لا نضـــــيعهُ**

يقول في الوصف في سجنياته:

**فسواد الليل ما أن ينقضي وبياض الصبح ما إن يُنتـــــــــظَر**
**لا أنيس يسمع الشكوى ولا خبر يأتي ولا طيف يمـــــــــــــر**
**بين حيطانٍ وباب موصد كـــلما حركَّهُ الســـــــــجَّان صـرْ**

وقد عرف البارودي أيضا بروح البطولة وأجواء الحماسة في شعره، جامعا بين الشجاعة في ساحات الورى وبين القدرة على تحمل الصعاب فيها. يقول في هذا الشأن:

**جدير إذا ما همَّ أن يكسو القنا وبيـــــض الظـــبا ثوبا من الدم أحـــمر**
**وما كلُّ من ساس الأعنَّةُ فارسا ولا كلُّ من ناش الأســـــنة قســـــورا**

ومن شعره في مناهضة الخديوي، قوله:

**أرى رؤسا قد أينعت لحصـــادها فأين، ولا أين السيوف القـــــواطع**
**فكونوا حصيدا جامدين أو افزعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع**
**أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة إليَّ ولباني الصدى وهو طـــــائع**
**فلم أدر أن الله صور قبلـــــــكم تماثيل لم يخلق لهـــــــن مسامـع**

**6- تلامذة البارودي:**

- **تلاميذ بالمشافهة**: أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، أحمد محرم (من مصر).

- **تلاميذ بالمراسلة:** شكيب أرسلان (سوري).
- قراءة أعماله من خلال كتاب (الوسيلة الأدبية) الذي ألفه أستاذه الشيخ حسين المرصفي. مثل: معروف الرصافي، جميل الزهاوي، عبد الرحمان الكاظمي. لأنهم من العراق.

**7- دور تلاميذ البارودي في تطوير مدرسة الإحياء:**

قام الجيل الجديد من تلاميذ البارودي بتطوير الاتجاه الذي بدأه أستاذهم البارودي، وذلك من خلال:

- انفتاحهم على الثقافة الغربية نتيجة لمعرفتهم للغات الأجنبية واختلاطهم بالأجانب وقراءتهم للمترجمات.
- الإيمان بفكرة الجامعة الإسلامية واعتبارهم رمزا لوحدة المسلمين في مواجهة الاحتلال.
- تأثير النضال الوطني الذي عمَّق وعي المثقفين بضرورة التمسك بتراث الأجداد وبالماضي العريق.
- اهتمامهم بقضايا الأمة مثل: ضرورة الإصلاح، حرية الصحافة، تحرير المرأة، تعدد الأحزاب.

**8- مظاهر التجديد عند تلاميذ البارودي:** أو كيف تفوق تلاميذ البارودي عليه:

- الانفتاح على الثقافة الغربية.
- عالجوا مشكلات مجتمعهم وعالمهم الإسلامي.
- التعبير عن روح العصر، سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا.
- خطوا بالشعر خطوات عظيمة فاقت ما قام به البارودي إذ اهتموا بالجانب الوجداني ولم يهتموا بالمحاكاة والتقليد بل تفوقوا على البارودي في الاهتمام بالصياغة وروعة البيان وحلاوة الموسيقا.
- الاتجاه نحو التجارب الذاتية، والاهتمام بالجماهير وآمالها وآلامها.
- مال أسلوبهم إلى السهولة بسبب ارتباطهم بالصحافة.
- التنوع في الأغراض وابتكار المعاني وفي سبيل ذلك ساروا في اتجاهين:

✓ الاهتمام بثقافة العصر.

✓ الأخذ من التراث.

هكذا يتضح أن الخصائص المميزة لشعر مدرسة البعث والإحياء التي ترأسها البارودي تبدو للوهلة الأولى مرتبطة بشكل القصيدة ومعمارها الفني المتأسس على وحدة البيت أو الأبيات مع تفرد كل منها بمعنى مستقل عما يليه من أبيات في القصيدة الواحدة، مع اعتمادها موسيقى على البحور العروضية الأكثر حضورا عند الشعراء القدامى حال وصفهم أو رثائهم أو وقوفهم على الأطلال محافظة منهم على الإيقاع الخارجي الذي لا يستقيم بناء القصيدة إلا بإتباع نسقه وفقا لنظام لغوي بجزالة ألفاظه وقوة عباراته، بيد أن اللغة الموظفة عند شعراء الإحياء وعلى رأسهم محمود سامي البارودي هي لغة قاموسية تحتاج إلى بحث عن معاني مفرداتها لصعوبتها وعدم فهمها، لقلة توظيفها وتداولها.